

محاولة في الكشف عن أمراضنا الفكرية و الاجتماعية "الحالة العراقية" ... أنموذجا القريبة " للحالة العربستانية "

د. علي الوردى... في الطبيعة البشرية

تقديم: سعد البزاز

الحلقة الثالثة

- أن هذا التغير في المناخ الذي حدث في هذه المنطقة كان له أثره الكبير في تاريخها و في طبيعة مجتمعها ، فقد حلّ الجفاف بهم بعد المطر الغزير ، و بدأ ضاقت عليهم وسائل العيش التي اعتادوا عليها زمنا طويلا . فهم كانوا يكسبون رزقهم عن طريق صيد الحيوانات و التقاط الأثمار و هي كانت وفيرة في الفترة السابقة ، ثم أخذت تشح عليهم تدريجيا ، و اضطروا الى التفكير الجدي في البحث عن وسيلة أخرى للعيش .
- يقول توينبي إن السكان انقسموا إلى فريقين أحدهما التجأ إلى رعي الأنعام من الإبل و الغنم و غيرها ، و صار ينتقل في الصحراء بحثا عن المراعي . أما الفريق الآخر فقد التجأ إلى أحواض الأنهار القريبة كالرافدين في العراق و النيل في مصر و صار يحترف الزراعة . و بدأ نشأت الحضارة لديهم .
- و في رأي توينبي إن قصة ادم و سقوطه من الجنة - و هي القصة التي ورد ذكرها في الكتب الدينية ، إنما تشير إلى التغير الكبير الذي حدث في هذه المنطقة ، فقد كان ادم و زوجته حواء يعيشان في جنة عدن منعمين ، ثم عصيا ربهما بتحريض من الشيطان ، فطردهما الله من الجنة حيث صارا يكسبان قوتهما عن طريق الكدح و عرق الجبين و مما يلفت النظر في قصة ادم كما ترويها الكتب انه رزق بعد خروجه من الجنة بولدين هما هابيل و قابيل . و تذكر القصة أن هابيل

امتهن الرعي بينما قابيل امتهن الزراعة ، ثم تنازع الإخوان فقتل " قابيل " " هابيل " و في رأي توينبي أن النزاع بين هابيل و قابيل رمز للصراع الطويل الذي حدث بين البداوة و الحضارة في هذه المنطقة .

- لو فرضنا أن هذه النظرية صحيحة حول منشأ الحضارة .. فالسؤال الذي يواجهنا هنا : لماذا نشأت الحضارة عن الزراعة و لم تنشأ عن البداوة ؟
- يجب أن نعلم قبل كل شيء أن الزراعة تعطي محترفيها فضلا إنتاج ، أما البداوة فلا تعطي هذه الفضلة و نقصد بـ " فضلا الإنتاج " ما يزيد على الحاجات الضرورية للإنسان ، و من الممكن القول أن البداوة تعيش على حافة المجاعة دائما . فالبدو ينتقلون وراء المراعي في الصحراء الواسعة . و هم يعتمدون في رزقهم على المطر ، فإذا توافر المطر في سنة من السنين نعموا به و شبعوا ، و إذا شح المطر جاعوا . و معنى ذلك أنهم لا يستطيعون أن يزيدوا من إنتاجهم بالإرادة و بذل الجهد ، بل هم ينظرون إلى السماء لتنعيم عليهم بالرزق و قد وصفهم القرآن قائلا : " رزقكم في السماء و ما توعدون " .
- أما الزراعة فهي و إن كانت تعتمد على المطر أيضا غير أن للإرادة و بذل الجهد لها نصيب في زيادة إنتاجها على وجه من الوجوه . و كلما بذل الزراع المزيد من الجهد في تنظيم الري و في ابتكار الأدوات لاستغلال الأرض كان إنتاجهم أوفر . و هم قادرون بالإضافة إلى ذلك أن يجعلوا إنتاجهم أكثر مما يحتاجون إليه في إشباع حاجاتهم الضرورية و بدأ ينتشر بينهم الترف في المأكل و الملابس و المسكن ، و تنمو لديهم الفنون المختلفة و غيرها و هذا معناه نمو الحضارة .
- و هناك ناحية أخرى جديرة بالذكر في هذا الصدد هي ان الدولة التي هي أهم مستلزمات الحضارة لا يمكن ظهورها إلا في المناطق الزراعية . أما المناطق البدوية فمن النادر أن تظهر فيها الدولة .
- إن الضرائب هي الأساس الذي تقوم عليه الدولة و لا تمكن جبايتها إلا في المناطق التي تتوافر فيها فضلا إنتاج - أي في المناطق الزراعية .
- أن البدو غير قادرين أن يدفعوا الضريبة مهما كان نوعها . و هم يعتبرون الضريبة نوعا من الإتاوة ، أي " الخاوة " حسب التعبير الشائع في العراق ، و هم يفتخرون بالحصول على الإتاوة من غيرهم و يختزون من دفع الإتاوة إلى أحد ، و هذا من الأسباب الذي جعل العداء مستحكما بين الدولة و القبائل البدوية . فإذا اتيح لقبيلة بدوية أن تدخل في حدود دولة مجاورة صعب عليها أن تدفع الضريبة لها ، و كثيرا ما تنسب المعارك الضارية بينهما جراء ذلك .
- وصفت الدولة بأنها أهم مستلزمات الحضارة و نحن نعلم أن الدولة في العصور القديمة كانت بالظلم و الاستغلال و الاستبداد . و قد أعطتنا الكتب الدينية وصفا واضحا للحكام القدامى من حيث ظلمهم للناس و استغلالهم كفرعون و نمرود وغيرهما . فكيف توفق بين هاتين الصفتين ؟

- كان البشر قبل ظهور الدولة يعيشون على شكل قبائل متفرقة ، وظل البدو يعيشون على هذا النمط حتى عهد متأخر و من الممكن القول بوجه عام أن النظام القبلي يخلو من الظلم و الاستغلال ولكنه في الوقت نفسه لا يساعد على نمو الحضارة و زيادة الإنتاج .
- إن القبيلة يتزعمها رئيس متبوع عادة ، و هذا الرئيس يجري في حكمه للقبيلة حسب الأعراف السائدة فيها ، و هو لا يستطيع أن يكون ظالما أو مستبدا بخلاف الأعراف السائدة ، و إذا ظهر ظلم أو استبداد على الرئيس القبلي ، و نفر منه أفراد القبيلة و كرهوه ، و قد يلتفون حول أحد منافسيه ليجعلوه رئيسا لهم بدلا من رئيسهم المكروه .
- أما الدولة فتقوم في الحكم على نمط آخر ، فالحاكم فيها كان يعتمد في حكمه على القوة القاهرة ، و لا يستطيع احد من رعيته أن يعترض عليه في شيء أو يعصى أمره ، و هو لا بد أن يندفع في شهواته و رغباته بلا حدود .
- و من طبيعة الإنسان بوجه عام يندفع في شهواته و رغباته ما لم يجد رادعا يردعه ، و هذا هو ما كان يفعله الحكام غالبا قبل قيام النظام الديمقراطي الحديث . فهم كانوا يشترون الجوازي و يشيدون القصور الباذخة و ينفقون أموال الأمة كما يشتهون ، ولكننا يجب أن لا ننسى مع ذلك ان حكمهم على مساوئهم هو أفضل من النظام القبلي القديم .
- إن القبيلة تكاد تخلو من الظلم و الاستغلال و الاعتداء و الجريمة في داخلها . فأفراد القبيلة يتعاملون فيما بينهم حسب ما تمليه عليهم الأعراف السائدة فيهم ، و إذا خالف أحد منهم تلك الأعراف احتقروه أو طردوه من بينهم ، ولكن هذا النظام ، لا ينجح في مجتمع كبير يشمل عدة قبائل و لا بد من وجود قانون عام يفرض على الناس بالقوة ، و هذا هو ما تفعله الدولة عند قيامها ، فإنها على الرغم من مساوئها الكثيرة تفرض الأمن على مجموعة كبيرة من الناس ، و تجبرهم على التعاون في الإنتاج و على الحياة المشتركة .
- لكي نعرف قيمة الدولة ننظر إلى ما يجري بين الناس عندما تغيب عنهم سلطة القانون و الدولة ، فسرعان ما تنشر الفوضى بينهم فيتناهبون و يتقاتلون دون رادع ، و قد أدرك ذلك بعض فقهاء المسلمين منذ زمن بعيد حيث قالوا : " الحاكم الجائر خير من الفوضى " .
- إن الأعراف القبلية قادرة على ضبط الناس في داخل القبيلة ، أما في خارجها فأفراد القبيلة أحرار فيما يفعلون بغيرهم ، وهم قد يفتخرون بما يفعلون من قتل أو نهب أو اعتداء خارج قبيلتهم و هذا يصدق أيضا على المجتمعات المحلية الصغيرة إنها المجتمعات المحلية الصغيرة ، و هي المجتمعات التي كنا نعيش فيها في العهد العثماني . فقد كان (الشقي) في ذلك العهد يفتخر بالسطو على البيوت و قطع الطريق . و فرض الإتاوة على التجار ، ولكنه يفعل ذلك خارج محلته . أما في محلته فهو البطل المغوار الذي يحمي محلته تجاه أعدائها و يحرص على إتباع أعرافها .

- و لا يفوتني أن أذكر مثلا .. فقد أعجبتني في هذا الصدد المقالة الافتتاحية التي نشرتها جريدة " الثورة " في 9 تموز 1987 م ، ففيها عرض موجز للمجتمع العراقي في العهد العثماني فقد كانت الحكومة آنذاك ضعيفة متفسخة ، و كانت سلطة القانون غائبة عن أنحاء كثيرة من العراق ، فحلت محلها الأعراف العشائرية و صار الفرد لا يأمن على نفسه أو عرضه أو ماله إلا إذا كان منتميا إلى عشيرة قوية تحميه ، أسرة ذات نفوذ تدافع عنه . و انتشرت حينذاك قيم الثأر و الدخالة و التسيار و فرض الإتاوة و العصبية المحلية و البلدية و الفخار بالغلبة بين الناس و بدأ انحطت الحضارة انحطاطا فظيعا .
- إن لهذا المثل معنىً يمكن إدراكه بسهولة ..

حول الشخصية

س: ما الطبيعة البشرية حسبما تراها أنت .. ليكن هذا بدايةً للحوار .

ج: هناك ثلاثة محاور رئيسة تدور حولها الطبيعة البشرية ، و من الصعب على الإنسان ان يفهم هذه الطبيعة دون فهم المحاور ، هي الشخصية و العقل و الأنوية . و سوف أتحدث الآن عن الشخصية : المقصود بالشخصية مجموعة الصفات التي يتميز بها كل فرد من البشر عن الآخر ، فقد أتضح الآن علميا أن البشر يختلفون في تكوين شخصياتهم ، فمن النادر أن تجد اثنين من البشر يتشابهان في شخصيتهما تشابها تاما ، و لا بد أن يكون بينهما شيء من الاختلاف قليلا أو كثيرا ، و هنا يواجهنا السؤال الأكبر الذي حار القدماء فيه قديما و ما زال العلماء حتى الآن في بحث مستمر حوله ، هو : لماذا يختلف الناس بعضهم عن بعض في تكوين شخصياتهم ؟

ذهب الكثير من الباحثين في وقت مضى إلى القول بأنّ الوراثة هي العامل الحاسم في تكوين شخصية الإنسان ، و جاء وقت آخر ذهب فيه بعض الباحثين إلى القول بأن التربية و البيئة الاجتماعية و الظروف التي ينشأ فيها الإنسان هي الأكثر تأثيرا في تكوين شخصية الإنسان من الوراثة . و من الممكن القول أن أكثر الباحثين الآن يقفون موقفا وسطا بين هؤلاء و أولئك .

فقد أتضح الآن أن الشخصية هي حصلة التفاعل بين مجموعتين من العوامل هما : عوامل الوراثة من جهة و عوامل البيئة و الظروف التي ينشأ فيها الإنسان من الجهة الأخرى .

إن الفرد عندما يولد يحمل معه صفات معينة ورثها من أبويه ، كشكل وجهه و بدنه ، و تكوين أجهزته العصبية و الهرمونية ، و كفاءة أعضائه ، وقوة عضلاته ، وغيرها . و هذه الصفات تدخل في بودقة البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد ، كالبيت الذي يتربى فيه ، و الأقران الذين يلعب معهم في طفولته ، و المجتمع المحلي الذي يتلقى القيم الاجتماعية منه ، و المهنة التي يكسب الرزق منها ، الخ .. و بهذا تتكون شخصية الفرد تدريجيا بمرور الزمن .

إن العوامل التي تدخل في تكوين شخصيات الأفراد لا يمكن أن تكون متشابهة ، ولا بد من أن يكون هناك شيء من الاختلاف بينها قليلا أو كثيرا . و لهذا فإن من النادر جدا أن نجد اثنين من البشر يتشابهان في جميع صفاتهما تشابها تاما - على نحو ما أشرت إليه أنفا .

ستتبع في الحلقات القادمة (انشاءالله)

2003 – 10 – 21

عادل السويدي